

الأهمية السياسية التاريخية لبلاد الشام (سوريا الطبيعية) في ظل المسألة الشرقية

طالب الدراسات العليا: أشرف أسعد طه إشراف أ. د: حسام جميل الناييف

ملخص:

شكلت بلاد الشام (سوريا الطبيعية) عبر القرون نقطة التقاء حضاري وسياسي جعلها في قلب التحولات الكبرى التي شهدتها بلاد الشام قبل خضوعها للانتداب الفرنسي، فقد كانت مسرحاً للصراع بين الدول الاستعمارية بسبب موقعها الاستراتيجي بين القارات الثلاث آسيا، وإفريقيا، وأوروبا.

تضمن البحث المسألة الشرقية (1822-1920م)، وبالتحديد مصير الدول العربية الواقعة تحت سيطرة الإمبراطورية العثمانية في ظل المسألة الشرقية.

سياسة محمد علي باشا التوسعية بغية السيطرة على بلاد الشام (1832 - 1840م) من أجل تأسيس دولة إسلامية قوية مترامية الأطراف.

إظهار موقف الدول الاستعمارية الكبرى وبالتحديد فرنسا، وإنكلترا، وروسيا الراضين لوجود دولة قوية اقتصادياً وعسكرياً يحكمها محمد علي على طريق التجارة الى جانب المكنة الدينية التي كانت مهد الديانات السماوية ودورها كمركز مؤثر في تاريخ العالم والمنطقة.

الكلمات المفتاحية: بلاد الشام، المسألة الشرقية، محمد علي، الإمبراطورية العثمانية.

The Political and Historical Significance of the Levant (Natural Syria)

in light of the Eastern Question

Graduate Student: Achraf Assad Taha

Supervised: Prof. Dr. Hossam Jameel Al-Nayef

Abstract:

Throughout the centuries, the Levant (Natural Syria) has served as a crossroads of cultural and political interaction, placing it at the center of major transformations prior to its subjection to the French Mandate. Its strategic position — linking the continents of Asia, Africa, and Europe—made it a principal arena for rivalry among the colonial powers.

The Eastern Question (1832–1920) fundamentally addressed the future of the Arab lands under Ottoman rule within this broader geopolitical context.

In pursuit of establishing a powerful Islamic state capable of counterbalancing competing powers, Muhammad Ali Pasha adopted expansionist policies to assert control over the Levant.(1840–1832)

These developments brought to light the stances of the major colonial powers—particularly Britain, Austria, and Russia—all of which opposed the emergence of a strong economic and military state ruled by Muhammad Ali along vital trade routes. Additionally, the profound religious significance of the region, as the cradle of monotheistic faiths, further reinforced its influence on the history of the region and the world.

Keywords: Levant, Eastern Question, Muhammad Ali, Ottoman Empire

مقدمة:

تعد بلاد الشام (سوريا الطبيعية) مركز الثقل الجيوسياسي في الشرق العربي خلال القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين إذ شكلت بموقعها الاستراتيجي حلقة الوصل بين المصالح الدولية المتضاربة، وقد تزامن هذا الدور مع بروز المسألة الشرقية التي عكست حالة التراجع في قوة الإمبراطورية العثمانية أمام المطامع الأوروبية المتزايدة للسيطرة على طرق التجارة والمنافذ البحرية الحيوية.

لم تكن بلاد الشام مجرد ساحة للتنافس الدولي فحسب بل كانت هدفاً لمشاريع إقليمية طموحة، أبرزها سياسة محمد علي باشا التوسعية (1832-1840م) التي سعت إلى إعادة صياغة خارطة النفوذ في المنطقة مما دفع القوى الكبرى إنكلترا، روسيا، والنمسا للتدخل المباشر لفرض توازنات سياسية جديدة تخدم مصالحها. يسعى هذا البحث إلى تحليل التحولات السياسية والعسكرية التي شهدتها بلاد الشام في تلك المرحلة، ويهدف البحث إلى فهم الجذور السياسية للأزمات التي مرت بها المنطقة قبل خضوعها للانتداب الفرنسي عام 1920م.

لذلك من الأهمية دراسة الأهمية السياسية التاريخية لبلاد الشام (سوريا الطبيعية) في ظل المسألة الشرقية.

• مشكلة البحث:

تتمثل إشكالية البحث في تفكيك وتحليل الأهمية الجيوسياسية لبلاد الشام (سوريا الطبيعية) باعتبارها المتغير الحاسم لأخطر أزمات "المسألة الشرقية" خلال العقد الممتد بين (1831م - 1841م). وتكمن المشكلة الدراسية في تجاوز التفسيرات التاريخية التقليدية السطحية التي تعاملت مع المنطقة كـ "ساحة صراع ساكنة"، والانتقال نحو دراسة تحليلية مقارنة تفسر كيف تحولت "المسألة الشامية" الناجمة عن الطموح التوسعي لمحمد علي باشا إلى إعادة هندسة شاملة لـ "المعادلات والترتيبات

السياسية الدولية، مبرزةً التناقض البنيوي بين استراتيجيات القوى الأوروبية (بريطانيا، فرنسا، روسيا، النمسا، بروسيا)، والتي لم تكن تسير وفق سياسة موحدة، بل تحكمت فيها المصالح الجيوسياسية المتعارضة لاقتسام النفوذ على خطوط التجارة والمنافذ البحرية الحيوية للشام.

• أهمية البحث:

تكمن الأهمية العلمية والمنهجية لهذا البحث في النقاط الآتية:

- التميز الفكري والإضافة العلمية: يبتعد البحث عن الصياغات العامة والسرود الروائية السطحية للأحداث التاريخية، ليقدم قراءة موضوعية تركز على نقد "المعادلات والترتيبات السياسية" الدبلوماسية والعسكرية التي شكلت منطلقات التدويل لبلاد الشام.
- تطبيق المنهج التاريخي المقارن: تبرز أهمية الدراسة في موازنة ونقد الروايات التاريخية المختلفة (الوثائق الرسمية المصرية، والمراسلات الدبلوماسية الأوروبية، والسجلات العثمانية)، لإظهار التباين الحقيقي في مواقف القوى الدولية (بريطانيا وفرنسا وروسيا) بدلاً من تبني النظرة الأحادية.
- الموضوعية والابتعاد عن التعميم: يتجنب البحث اختزال تراجع النفوذ العثماني في قوالب جاهزة (كالتخلف المطلق)، بل يحلل الأزمة من منظور بنيوي يراعي التحديات الداخلية (العسكرية والمالية) والضغوط الاستعمارية الخارجية المترامنة.

- **الضبط المفاهيمي والتسلسل الزمني:** يساهم البحث في معالجة الاضطرابات الشائعة في التواريخ وبنود الاتفاقيات الدولية الحاكمة للمسألة الشرقية في تلك الفترة الممتدة من التدخل العسكري المصري 1831م وحتى تسوية معاهدة لندن 1840م وفرمانات 1841م.

• أهداف البحث:

يسعى هذا البحث إلى تحقيق حزمة من الأهداف الأكاديمية المحددة:

تأصيل مفاهيمي دقيق للمسألة الشرقية:

- رصد أطوار ومراحل تطور "المسألة الشرقية" تاريخياً.
- إبراز دور بلاد الشام كحجر زاوية في هذه الظاهرة.

تقييم استراتيجية الحملة المصرية بالشام:

- تحليل الدوافع الحقيقية وراء مشروع محمد علي التوسعي.
- تبيان الأثر الإداري والسياسي لإبراهيم باشا في المنطقة.

تفكيك المواقف الدولية المتنافسة:

- كشف أبعاد الصراع البريطاني الفرنسي الروسي حول الشام.
- استقراء السياسات البراغماتية لكل دولة تجاه الأزمة الشامية.

• منهجية البحث:

يستند هذا البحث بصورة أساسية إلى المنهج التاريخي المقارن والمنهج التحليلي النقدي، متجاوزاً أسلوب السرد الوصفي البسيط. وتتضح معالم هذه المنهجية التطبيقية في النقاط الآتية:

- تفكيك بنود الاتفاقيات الدولية (كوتاهية، هونكيار إسكله سي، لندن 1840).
- تتبع التغيرات الجيوسياسية بموجب كل اتفاقية بشكل دقيق.
- تجنب النقل السردى الأعمى للأحداث والوقائع دون تمحيص.

• عرض البحث:

احتلت سوريا الطبيعية بلاد الشام موقعاً ذو أهمية استراتيجية في خريطة التاريخ الإنساني لما تمتاز به من ثقل سياسي وحضاري في مرحلة ما قبل الانتداب الفرنسي بسنين طويلة لقد كانت تلك المنطقة صلة وصل بين الدول التي شكلت جزء مهما من ملامح العالم القديم والحديث وأسباب اهتمام القوى الدولية بها.

(1) المسألة الشرقية 1822-1920م:⁽¹⁾

اعتباراً من القرن الثامن عشر وخلال القرن التاسع عشر الميلادي، بدأت ملامح الضعف البنيوي في جسد الدولة العثمانية بالظهور الجلي، حيث غدت عاجزة عن حماية حدودها الإقليمية الواسعة وصون سيادتها. وأدى هذا التراجع الهيكلي إلى إثارة مطامع الإمبراطوريتين الروسية والنمساوية في منطقة البلقان والمضائق البحرية الحيوية، بينما وقفت كل من فرنسا وبريطانيا في مواجهة تلك التطلعات؛

⁽¹⁾ تم تحديد الفترة الزمنية للمسألة الشرقية على اعتبار ان هذا المصطلح قد ظهر أثناء انعقاد مؤتمر فيرونا عام 1822م ليشمل المشكلات الدولية التي كان ينطوي عليها انحلال الامبراطورية التركية الوشيك وانتهى بمؤتمر سيفر في 10 آب عام 1920م.

انظر: نور الدين، زين. (1976م). الصراع الدولي في الشرق الاوسط وولادة سورية ولبنان، لبنان: ببيروت. دار النهار. ص:22.

بغية حرمان روسيا والنمسا من فرض سيادتهما على الممرات المائية ومنعهما من النفاذ المباشر إلى حوض البحر الأبيض المتوسط. وبذلك، تبلورت "المسألة الشرقية" كوحدة مفاهيمية تعبر عن مجمل المشاكل والأزمات الدولية الناجمة عن الانحدار العثماني والمنافسة الاستعمارية الحادة بين الدول الأوروبية لاقتسام أملاكها. وقد قادت هذه المعطيات لاحقاً إلى النفاذ الغربي للبلاد العربية وتوليد أزمات جيوسياسية متلاحقة تعاقبت فصولها في مطلع القرن التاسع عشر، ومنتصفه، والربع الأخير منه.²

وكان حكام أوروبا وعزّابو دبلوماسيتها إذا تدارسوا "المسألة الشرقية" أرادوا بها تشخيص واقع الدولة العثمانية بالنظر إلى مصالحهم الاستراتيجية أو مطامعهم النفعية الخاصة. وكان التركيز ينصب على مضيق الدردنيل الذي يُمثل قلب الدولة العثمانية الحصين؛ إذ سادت القناعة في العواصم الغربية بأن تلك الدولة قد تجاوزت مرحلة الشيخوخة ودخلت طور الانحلال الفعلي. وبناءً على ذلك، بدأت كل دولة تطالب بنصيبها الجغرافي من تلك الغنيمة المتداعية، متذعرةً في الغالب بدوافع دينية؛ وزعموا أن تحركاتهم تأتي لحماية الأقليات المسيحية في الشرق، أو للرد على تجاوزات الحكام العثمانيين ضد مصالحهم التجارية ورعاياهم الأجانب. وعمدت النمسا في هذا السياق على إثارة نزعات سكان البلقان الانفصالية ضد العثمانيين باسم "مبدأ القوميات والجنسيات"، بينما قادت روسيا القيصرية تحركاتها الدبلوماسية والعسكرية باسم المذهب الأرثوذكسي، وتدخلت بروسيا (ألمانيا لاحقاً) مدفوعةً بتحالفاتها التاريخية مع روسيا. وفي المقابل، برزت بريطانيا في مظهر الصديق والحليف للباب العالي، وهي

² الدسوقي، محمد كمال. (1976م). الدولة العثمانية والمسألة الشرقية. القاهرة: مصر. دار الثقافة للطباعة والنشر. ص: 45-52.

صداقة براغماتية كاذبة ربحت لندن من ورائها نفوذاً ومكاسب جغرافية واقتصادية تعادل ما كانت تخسره السلطنة العثمانية من أراضي وسيادة. ورغم تضارب وتعدد أطماع الدول الأوروبية، إلا أنها أدركت جماعياً أن بقاء الإمبراطورية العثمانية يُمثل ركيزة إلزامية للحفاظ على "توازن القوى الدولي"، وهي الوظيفة السياسية المحورية التي أدارتها المسألة الشرقية لعقود لمنع صدام أوروبي شامل³.

وتحت وطأة هذه الضغوط، لجأت الحكومة العثمانية في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين إلى انتهاج سياسة "الإصلاح" بآليات ارتكزت على دعم وإملاءات غربية، وتمحورت حول ثلاث ركائز أساسية: اقتباس النظم الغربية في تنظيم الجيش العثماني وتسليحه وإدارة الحكم، والتوجه بالمجتمع نحو التشكيل العلماني والخروج النسبي عن التنظيم الإسلامي التقليدي للدولة، فضلاً عن تعزيز مركزية السلطة بين القسطنطينية والولايات التابعة لها. غير أن تلك التدابير والإصلاحات المتأخرة—والتي كان غرضها الأساسي إرضاء الدول الأوروبية—أدت إلى نتائج عكسية زادت من وتيرة انهيار الدولة؛ إذ فتحت الباب للتدخل الأجنبي المباشر في الشؤون السياسية والمالية للإمبراطورية وفرض شروط قاسية أفقدتها الجزء الأكبر من سيادتها، لتنتهي فصول هذه المسألة تاريخياً بدعوة الدولة التركية للتوقيع على معاهدة سيفر في 10 أغسطس عام 1920م.

ومن هنا يطرح البحث تساؤلاً جوهرياً حول مصير المنطقة العربية في ظل المسألة الشرقية؛ فبعد أن بقيت البلاد العربية تحت السيطرة العثمانية لقرابة أربعة قرون متتالية عانت خلالها من انغلاق سياسي واقتصادي وثقافي فرضته طبيعة الإدارة العثمانية، كانت أوروبا تشهد تحولات ديموغرافية وعلمية

³ الحصري، ساطع. (1957م). البلاد العربية والدولة العثمانية. القاهرة: مصر. مطبعة الرسالة. ص: 112-116.

راديكالية تبحث فيها عن مصادر ثروة وتقنيات جديدة. هذا التباين الحضاري أدى لصعود الرأسمالية الغربية ونشوء "أوروبا الحديثة"، في حين بقيت المنطقة العربية مهمشة وتزداد فجوة تخلفها بمقياس التقدم الأوروبي المتسارع. وتُوج هذا الانكشاف التاريخي بصعود الاستعمار الأوروبي الجديد عبر صراع بريطاني-فرنسي قاد للاستحواذ على مصر، والجزائر، وتونس، والمغرب، وليبيا. ومع اشتعال الحرب العالمية الأولى (1914-1918م)، اكتملت حلقات السيطرة الاستعمارية باحتلال العراق وفلسطين وبلاد الشام، لتُشرعن هذه السياسة التقسيمية لاحقاً بموجب صكوك الانتداب الصادرة عن الهيئة الدولية الناشئة المتمثلة في عصبة الأمم⁴.

(2) دور الامبراطورية العثمانية في ظهور واستفحال المسألة الشرقية:

أدرك السلطان العثماني عبد الحميد بعد اعتلائه السلطة أطماع أوروبا فيها وقد ورد في مذكراته: ((عندما توليت العرش لم أكن أعلم بهذه الحقائق وانما ابتدأت بمعرفتها واحدة بعد واحدة بالتجربة اننا نقف بمفردنا في العالم لنا أعداء، وليس لنا صديق، يمكن للصليب ان يتحد في كل وقت، لكن الهلال دائماً بمفرده. كلٌ ينتظر النفع من الدولة العثمانية، ويظهر لنا الصداقة، ولكن عندما لا يوجد فيها ما يأمل، سرعان ما يعاديه))⁽⁵⁾. ثم يعود ليقول مبيناً تأمر الدول الأوروبية على امبراطوريته ((ان

⁴ الخطيب، محمد كامل. (2003م). آخر أخبار المسألة الشرقية: ما يزال الرجل مريضاً. دمشق: سوريا. وزارة الثقافة السورية. ص: 78.

⁽⁵⁾ السلطان عبد الحميد. (1991م). مذكرات السلطان عبد الحميد، ط: 3، ترجمة: محمد حرب. لبنان: بيروت، دار القلم. ص: 140.

الانكليز والفرنسيين والروس وحتى الالمان والنمساويون أي كل الدول الأوروبية الكبرى وجدت مصلحتها في تقسيم الدولة العثمانية وتفتيتها⁽⁶⁾.

نستنتج من ذلك ان الامبراطورية العثمانية كانت ضحية لأطماع أوروبا المادية ويمكن القول ان تدهور وضعف الدولة العثمانية يعود لعوامل داخلية عدة أهمها:

- السلاطين العثمانيون بعد سليمان القانوني كانوا سلسلة من الحكام الضعاف الذين يفتقرون الى دراية لاحتياجات الامبراطورية الجديدة⁽⁷⁾.
- الفساد في الادارة المركزية والمحلية.
- تدهور نظام الإنكشارية⁽⁸⁾.
- الفساد الذي كان متفشياً في العاصمة والولايات، فكثيراً ما كان الولاة يشترون تعيينهم بالمال، وهدفهم الاول أطماعهم الخاصة، وفي إحدى سجلات الدولة العثمانية وجد جدول بأسماء 61 والياً تم تعيينهم في دمشق بغضون 80 عاماً أولها عام 1815م⁽⁹⁾.
- من الاسباب المهمة تمرد شعوب الدول التي خضعت للسلطنة العثمانية عليها بسبب تصرفات السلطنة كونها كانت دولة إقطاع عسكري لأنهم عندما يستولون على أي منطقة يتم إحصاء

⁽⁶⁾ السلطان عبد الحميد. (1991م). ص:130.

⁽⁷⁾ عامر، محمود علي. (2004م). تاريخ الامبراطورية العثمانية، دراسة تاريخية واجتماعية. ط:1. سوريا: دمشق. ص:243.

⁽⁸⁾ انيس. (1993م). ص:167.

⁽⁹⁾ حتي، فيليب. (1959م). تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، ترجمة: كمال اليازجي. ط:1. لبنان: بيروت. دار الثقافة. ص: 313.

المقاطعات وقرى ويمنحون القرى الى الجنود المحاربين والمقاطعات الكبيرة الى القواد والامراء والمقاطعات الكبيرة الى السلطان⁽¹⁰⁾ وتلك المنح تقتصر على حق جباية الاعشار وسائر الرسوم والضرائب المترتبة عليها.

ساهمت الامبراطورية العثمانية في زيادة حجم التدخل الاوروبي في اعمالها الحكومية من خلال الدين المترتب على الامبراطورية للبنوك الاوروبية فمنذ عام 1850م أصبحت السلطنة بحاجة للمال لسد نفقات الجيش والادارة وفي عام 1881م انشئت إدارة الديون العامة واعطيت الادارة حق الرقابة على الجزء الاكبر من الواردات المالية العثمانية كونها تمثل الدائنين الاجانب⁽¹¹⁾. اما البعض فقد تكهن بزوال الامبراطورية العثمانية وتحل محلها دولة تركية وهذا ما ذكره يوسف آقجورا⁽¹²⁾ الذي كان يقول: ((ان الدولة العثمانية لا يمكن ان تعيش لأنها مؤلفة من عناصر وقوميات مختلفة، انها ستموت وتنتفض حتماً، ولكن بعد موتها ستقوم دولة تركية لا تضم غير الاتراك⁽¹³⁾)).

⁽¹⁰⁾ رافق، عبد الكريم. (1974م). العرب والعثمانيون 1516-1916م. ط:1. سوريا: دمشق. مطابع أ ب الاديب. ص:45.

⁽¹¹⁾ حوراني، البرت. (1997م). تاريخ الشعوب العربية. ترجمة: كمال خوري. ط:1، لبنان: بيروت. ص:353.

⁽¹²⁾ يوسف آقجورا: من أترك روسيا، من نواحي قزان الواقعة على نهر الفولغا، درس في جامعة أرنهورغ في روسيا ثم واصل الدراسة في مدرسة العلوم السياسية في باريس.

انظر: الحصري، ساطع. البلاد العربية والدولة العثمانية. ط:1، مصر: القاهرة، مطبعة الرسالة. ص:108.

⁽¹³⁾ الحصري (1957م)، ص:110.

3) سياسة محمد علي باشا التوسعية واحتلال بلاد الشام وموقف الدول الأوروبية

منه (1832-1840م):

شعر محمد علي باشا⁽¹⁴⁾ والي مصر بضعف الدولة العثمانية وان الاوان لتنفيذ طموحه بتوسيع نطاق سلطنته ولا سيما انه تعلم الكثير من نتائج الحملة الفرنسية على مصر وبلاد الشام 1798-1801م والتي كانت مليئة بالفوائد بالنسبة لمحمد علي باشا التي ساعدته في الحكم⁽¹⁵⁾، فأصبحت العلاقة بينه وبين السلطان العثماني فقد اصبحت سيئة منذ عام 1829 م فكان الباشا يكن الحق للسلطان لأنه لم يفي بوعدده بإعطائه سوريا بالإضافة لمصر لاشتراكه بحرب المورة الى جانب العثمانيين ورفض السلطان محمود الثاني (1785-1839م) اطلاق يد الباشا في ليبيا بسبب تقاعس الباشا بمساعدة السلطان في حرية الاخيرة مع روسيا⁽¹⁶⁾، وان هذا الطموح اصطدم بقوة بمصالح انكلترا والتي بانته معالمها بعد الحملة الفرنسية على مصر والتي تمثلت في عدم السماح لأي قوة أوروبية بالاستيلاء على

⁽¹⁴⁾ محمد علي باشا (1769-1849م): ولد في مدينة قوله، وهي مدينة بحرية صغيرة، ولد محمد علي في عام 1769م، وهو تركي عثماني مسلم، لا يمت للألبان بصله، والا لصقالبة مقدونيا ويونانها بسبب ولا نسب والثابت ان أباه ابراهيم آغا كان على رأس كتيبة من رجال الحفظ في المدينة، وانه مات أبنة لازال صغيراً، وان والي المدينة كفل محمد بعد موت ابيه، ونشأ محمد نشأة علمية صرفة، ولما بلغ 18 من عمره تزوج بسيدة من قريبات الوالي ورزقه الله منها بخمسة من أبنائه وبناته، ويقال انه عمل بعد زواجه في تجارة الدخان في ربيع الثاني عام 1805م وصل مرسوم الدولة العثمانية ومضمونه الخطاب لمحمد علي باشا والي جدة سابقاً، ووالي مصر حالياً.

انظر: الكيالي، عبد الوهاب . (1993م). الموسوعة السياسية، ج:6، ط:3، لبنان: بيروت. المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

ص:92-93.

⁽¹⁵⁾ سمحات، قاسم. د.ت، محمد علي باشا والمشروع الفرنسي في بلاد الشام (1804-1850م)، دم، ص:127.

⁽¹⁶⁾ خوري، اميل - عادل إسماعيل. (1960م). السياسة الدولية في الشرق العربي 1789-1958م. ط:1، ج:2. لبنان: بيروت. دار النشر للسياسة والتاريخ. ص:86.

مصر أو ان يكون لها نفوذ سياسي يهدد مصالحها والمحافظة على كيان الدولة العثمانية المتداعي وتعزيز النفوذ البريطاني فيها وإبقاء مصر في إطار الدولة العثمانية وعدم انفصالها تحت أي حكم⁽¹⁷⁾.

بعد ان استقرت ولاية مصر لمحمد علي باشا أصبح الفرنسيون يساعدونه بالعلوم والفنون العصرية وتدريب الجنود⁽¹⁸⁾، وتمكن من تنظيم جيش مدرب وبأمر من السلطان محمود ارسل حملة على الحجاز لإخراج الوهابيين منها⁽¹⁹⁾، وحملة أخرى لإخماد ثورة المورة وأيضاً حملة على السودان بينما الدولة العثمانية مشغولة بحرب مع الروس فاجتتم محمد علي باشا الفرصة وبتحريض من فرنسا من اجل السيطرة على بلاد الشام⁽²⁰⁾، سبق وان ولت الدولة العثمانية ابراهيم باشا⁽²¹⁾ ولاية المورة اليونان والتي استقلت عام 1828م ليصبح ابراهيم باشا بلا ولاية فطلب له والده من الباب العالي ان يتولى ابراهيم ولاية الشام فلم تتم الموافقة واختير له ولاية كريت فرفضها فقام محمد علي بتهديد السلطنة والزحف على القسطنطينية وعلى اثر ذلك قرر الباب العالي عزل محمد علي باشا من ولاية مصر واخذ يعد حملة ليسوقها عليه⁽²²⁾، الا ان محمد علي باشا قرر الخروج عن سلطة الباب العالي مستغلاً حادثة ضخمها

⁽¹⁷⁾ الغنام، سليمان (1980م)، قراءة جديدة لسياسة محمد علي باشا التوسعية (1811-1840م) في الجزيرة العربية والسودان واليونان وسوريا. ط:1، السعودية: جدة، نشر تامة. ص:121.

⁽¹⁸⁾ العظمة، عبد العزيز (2002م). مرآة الشام تاريخ دمشق وأهلها. ط:2، سورية: دمشق، دار الفكر. ص:290.

⁽¹⁹⁾ حسون، علي (1994م). تاريخ الدولة العثمانية. ط:3، لبنان: بيروت، المكتب الاسلامي. ص:164.

⁽²⁰⁾ العظمة (2002م). ص:291.

⁽²¹⁾ ابراهيم باشا (1789-1848م): الابن الاكبر لمحمد علي، ويعتبر المؤسس الفعلي للجيش المصري، كان يعرف الفارسية والتركية والعربية. قاد الحملة الفرنسية ضد الوهابيين (1816-1819م) فهزمهم. تولى حكم مصر في نيسان بسبب عجز أبيه وتوفي في تشرين الثاني عام 1848م.

انظر: موسوعة السياسة (1990م). ط:3، ج:1، لبنان: بيروت، دار نعمة للطباعة. ص:19.

⁽²²⁾ العظمة (2002م). ص:291.

بخلاف مع والي عكا فأعد محمد علي باشا جيشاً بقيادة ابنه ابراهيم باشا عام 1831⁽²³⁾، وبعد سلسلة من المعارك حققت قوات محمد علي باشا نصراً كبيراً على الجيش العثماني⁽²⁴⁾، ودخول ابراهيم باشا بقواته مدينة دمشق بدون معركة يوم 14 محرم 1248 هـ - 1832 م⁽²⁵⁾، شعر محمد علي وابنه ابراهيم ان الظروف أصبحت مواتية لفرض شروطهما على السلطان العثماني ونتيجة ما قام به الباشا فأرسل السلطان محمود مندوباً عن السلطنة للتفاوض بصلاحيته مطلقة على أساس عفو سلطاني شامل ومنحه حكم مصر والمنطقة الجنوبية من سوريا وشرط الامتناع عن التعويض او الاعتراف بحق الوراثة لأبنائه من بعده، ومن خلال المفاوضات شعر محمد علي بضعف السلطان وأصبح مصرأ على ضم سوريا بالكامل لسلطته والاحتفاظ بأرضه وان يحظى بمعاملة خاصة ودفع الخراج السنوي كل عام بالوقت المحدد.⁽²⁶⁾

في بداية الامر لا بد من بيان موقف الدول العظمى فرنسا وانكلترا وروسيا من انتصارات ابراهيم باشا إذ انه كان يميل الى عدم التدخل بالرغم ان السلطان محمود طلب مساعدة الدول الاوروبية، نجد ان فرنسا كانت متعاطفة وكذلك الرأي الفرنسي مع محمد علي وأجريت عدة رسائل ما بين حكومة محمد علي وملك فرنسا لإيضاح حقيقة الامر وطالباً الوقوف لجانبه⁽²⁷⁾، أما موقف انكلترا فكان عدم زج نفسها في المشاكل القائمة بين السلطان العثماني ووالي مصر، وأما موقف روسيا فكانت تنتظر الى انتصارات

⁽²³⁾ العظمة (2002م). ص: 292.

⁽²⁴⁾ الدسوقي (1976م). ص: 165.

⁽²⁵⁾ كرد علي، محمد (1925-1928م). خطط الشام، ج: 5، سورية: دمشق، مطبعة المجمع العلمي العربي. ص: 293.

⁽²⁶⁾ خوري، عادل إسماعيل (1960م). ص: 93-94.

⁽²⁷⁾ كامل باشا، مصطفى (1909م). المسألة الشرقية، ط: 2، ج: 1، مصر: القاهرة، مطبعة اللواء. ص: 159-160.

محمد علي تشكل خطورة عظيمة بالنسبة لها⁽²⁸⁾، أرسلت روسيا مندوباً الى السلطنة وعرضت ارسال أسطول روسي للدفاع عن القسطنطينية وقد رفض السلطان العثماني العرض بسبب ان روسيا هي العدو التقليدي للسلطنة ولم يتم التوصل لاتفاق، أرسلت روسيا ذات المندوب الى مصر وقد أبدى محمد علي استعدادة للتعاون مع روسيا وانه لن يتقدم باتجاه اسطنبول وذلك كسباً لود روسيا⁽²⁹⁾، الا ان السلطان العثماني تراجع عن قراره وطلب المساعدة الروسية حيث استجاب القيصر الروسي وأرسل أسطول روسي قوي في 20 شباط 1833 م الى شاطئ اسطنبول⁽³⁰⁾.

أظهرت انكلترا وفرنسا غضبها بسبب التقارب الروسي العثماني ففي 18 نيسان عام 1833 م عقدت اتفاقية في كوتاهية⁽³¹⁾ في مقر ابراهيم باشا، وعقدت اتفاقية صلح بين السلطنة العثمانية ومحمد علي⁽³²⁾، تقضي بالعفو عن محمد علي وإبقائه والياً على مصر وسنار وكريت وضم ايلات سوريا إليه، ويكون ابراهيم حاكماً على الحبشة والحجاز، وظل الصلح شفهيّاً لرفض السلطان تسجيله⁽³³⁾ بسبب ارسال روسيا مندوبا عنها والتي افضت اجتماع المندوب مع السلطان الى اتفاقية عرفت ب انكيار سكليسي في 8 تموز عام 1833م، حيث اثارت هذه المعاهدة الدول الاوروبية من حيث حصول روسيا

(28) الدسوقي (1976م). ص: 167-168.

(29) الدسوقي (1976م). ص: 169.

(30) خوري، عادل إسماعيل (1960م). ص: 96-97.

(31) كوتاهية: مدينة في تركيا الاسيوية (الاناضول)، مركز لواء كوتاهية ولطان أونو. بنيت عند سفح هضبة.

انظر: موستراس، المعجم الجغرافي العثماني (د.م- د.ت). ص: 428.

(32) الدسوقي (1976م). ص: 170.

(33) خوري، عادل إسماعيل (1960م). ص: 111.

على مكاسب كبيرة جدا وهي التي تقضي بان يطلب الباب العالي من روسيا المساعدة البحرية والعسكرية وفضلاً عن معاهدة تحالف دفاعي⁽³⁴⁾.

انزعجت أوروبا من مضمون المعاهدة وبنودها السرية فاستغل محمد علي باشا الجو الدولي المضطرب واخذ يطالب باستقلاله طالباً من حكومتي فرنسا وانكلترا الاعتراف بالاستقلال وذلك في 3 أيلول عام 1834م مقابل امتيازات يقدمها لهم معللاً طلبه بانه الضمان الوحيد للوقوف بوجه روسيا وتقدمها في الشرق عبر آسيا وبلاد فارس⁽³⁵⁾، الا ان موقف تلك الدول كان سلبياً فاخذ محمد علي البحث عن الطريقة التي يمكن معالجة خلافاته مع السلطان بدون تدخل الدول الاوروبية، ونتائج المفاوضات بين الطرفين كانت فاشلة. اشتدت الازمة بين الطرفين عام 1837م فحشد السلطان العثماني جيوشه على الحدود السورية الشمالية وحشد محمد علي جيوشه استعداداً للمواجهة العسكرية⁽³⁶⁾. نتيجة للوضع المتأزم كان لا بد من محمد علي من تنفيذ مخططة السياسي اذ عمد الى استدعاء قنصلي انكلترا وفرنسا في 25 أيار عام 1838م وإبلاغهم إعلان الاستقلال ومن ثم تبليغ قنصلي روسيا والنمسا⁽³⁷⁾، على أثر تلك المجريات قرر السلطان العثماني الحرب على محمد علي باشا وفي 21 نيسان عام 1839م تحركت القوات العسكرية العثمانية من وادي الفرات باتجاه سوريا، وانتهت الحرب بهزيمة الجيش العثماني لأسباب عدة منها:

(34) انظر: نص معاهدة انكيار سكليسي المعقودة بتاريخ 8 تموز عام 1833م. خوري وعادل إسماعيل (1960م). ص: 277.

(35) خوري، عادل إسماعيل. (1960م). ص: 120-121.

(36) خوري، عادل إسماعيل. (1960م). ص: 129.

(37) خوري، عادل إسماعيل. (1960م). ص: 130-131.

- غدر بريطانيا بالإمبراطورية العثمانية وعدم تدخلها عسكرياً لصالحها.

- تعامل محمد علي باشا مع قرار إعلان الحرب على السلطنة بكياسة عالية جداً وتوظيفه ضد خصمه السلطان محمود، وظهوره بمظهر المطالب للسلم من خلال إرسال مذكرة في 16 أيار عام 1839م إلى قناصل الدول في القاهرة موضحاً من خلال المذكرة الاستعداد للانسحاب من سوريا الشمالية إلى دمشق إذا عاد الجيش العثماني لقواعده خلف الفرات، ونظراً لعدم انسحاب الجيش العثماني دارت معركة عنيفة في نرب انتهت بهزيمة الجيش العثماني في 24 حزيران عام 1839م⁽³⁸⁾، فأصبح الطريق مفتوح باتجاه الآستانة للجيش المصري بقيادة ابراهيم باشا وعزز هذا النصر لجوء الاسطول العثماني بتاريخ 4 تموز عام 1839م الى الاسكندرية⁽³⁹⁾.

تزامنت انتصارات محمد علي مع وفاة السلطان محمود الثاني، وتسلم السلطة السلطان عبد المجيد خان الذي أرسل مندوباً للتفاوض مع محمد علي الا ان المفاوضات باءت بالفشل بسبب تدخل الدول الاوروبية، وعلى أثر ذلك قررت السلطنة إعادة استئناف المفاوضات مع محمد علي باشا، وإغلاق مضيق الدردنيل في وجه جميع الدول هذا الذي أدى الى اضطراب الدول الأوروبية وبالأخص انكلترا التي أكدت عزمها بالمحافظة على وحدة الامبراطورية وكيانها من خلال سفيرها في الآستانة إلا ان هذا

⁽³⁸⁾ خوري، عادل إسماعيل. (1960م). ص: 143.

⁽³⁹⁾ خوري، عادل إسماعيل. (1960م). ص: 164.

الأمر لم يثنى السلطنة عن قرارها و أرسلت مندوباً عنها إلى الاسكندرية للمفاوضات مع محمد علي باشا. (40)

أبدت الحكومات الأوروبية قلقها من الاتفاق الحاصل مع محمد علي باشا دون الرجوع إليها، فتم تشكيل تحالف دولي خماسي بتاريخ 20 تموز عام 1839م للنظر بما قامت به الدولة العثمانية دون الرجوع للدول الأوروبية. (41)

4) التحالف الانكليزي الروسي البروسي العثماني من أجل العمل على طرد محمد

علي باشا وابنه من بلاد الشام 1839م:

لم يلق القبول من الدول الأوروبية المكاسب التي حققها محمد علي سياسياً وعسكرياً واقتصادياً و بالأخص انكلترا التي كانت تسعى الى القضاء على النفوذ الروسي لدى العثمانيين وتدمير الجيش العثماني في معركته مع جيش محمد علي وإقصاء فرنسا عن مصر والحد من نفوذها في سوريا وتكون هي الرابحة في الشرق (42)، وكانت مصلحة انكلترا ان لا تكون مصر قوية اقتصادياً وبالتالي ستصبح قوة عسكرية إسلامية عربية التي تمثلت بالإصلاحات التي ظهرت ما بين 1832 و 1840م وطموح محمد علي وابنه ببناء دولة عربية قوية (43). لجأت انكلترا بتحريض بحارة الاسطول العثماني الذي لجأ إلى الاسكندرية ورفع راية العصيان من اجل العودة الى الآستانة، ولكن محمد علي لجأ للحل السلمي

(40) خوري، عادل إسماعيل. (1960م). ص: 167.

(41) خوري، عادل إسماعيل. (1960م). ص: 171.

(42) خوري، عادل إسماعيل. (1960م). ص: 140-141.

(43) الكيالي. (1993م). ج: 3، ص: 293.

مرة أخرى فارسل أحد دهاة ديوانه بشهر حزيران عام 1840م الى الآستانة حاملاً معه ود محمد علي وخضوعه لأوامر السلطان وإعادة الاسطول البحري العثماني في اليوم الذي يريده السلطان مقابل منحه حكم مصر وسوريا وراثياً ودفع الخراج، فتدخلت انكلترا وطلبت من السلطان عبر سفيرها ان لا تقدم على أية تسوية بدون إشراك الدول الأوروبية وبذلك تكون أخفقت مهمة مندوب محمد علي باشا⁽⁴⁴⁾.

(5) التحالف العسكري الاوروبي ضد محمد علي لإخراجه من بلاد الشام:

تمكنت انكلترا من إنشاء تحالف اوروبي ضم انكلترا وروسيا والنمسا وبروسيا ووقع الجميع على مذكرة في 27 تموز عام 1839م والمتضمنة إلزام الباب العالي العثماني بوقف المفاوضات مع محمد علي⁽⁴⁵⁾، وتمكنت انكلترا بالاتفاق مع روسيا والنمسا وبروسيا بتوقيع اتفاقية في 15 تموز عام 1840م في لندن والتي تضمنت: ان تكون مصر وراثية لمحمد علي وولاية عكا مدى الحياة فاذا امتنع عن الانسحاب من الارض التي احتلها ولم يقبل بالعرض خلال عشرة أيام تبقى له ولاية مصر فقط واذا أصر على الرفض خلال عشرة أيام أخرى تُزعت منه ولاية مصر، وساعدت الدول الأوروبية السلطنة العثمانية عسكرياً لإخضاع محمد علي.

وافق السلطان العثماني على مقررات المعاهدة في 3 آب عام 1840م وكُلف رفعت بك أحد كبار رجاله لحمل العروض المقررة الى محمد علي⁽⁴⁶⁾، أما الدول الأوروبية لم تقم بتبليغ فرنسا قبل التوقيع

(44) الغنام. (1980م). ص: 116.

(45) الدسوقي (1976م). ص: 182.

(46) خوري، عادل إسماعيل (1960م). ص: 284.

بمضمون المعاهدة الا ان انكلترا أبلغت فرنسا بواسطة سفيرها في فرنسا بنص المعاهدة في 15 تموز 1840م مبررة فيها أسباب إقدام الدول الاربع على توقيع المعاهدة⁽⁴⁷⁾.

6) موقف محمد علي باشا من بنود معاهدة لندن:

وصل مندوب السلطان العثماني الى الاسكندرية في 11 آب عام 1840م واجتمع مع محمد علي في 16 آب وبلغه مقررات معاهدة لندن⁽⁴⁸⁾، وبتاريخ 22 آب اجتمع محمد علي بأركان دولته واطلعه على مضمون المعاهدة وما دار في الاجتماع وطلب منهم المشورة فُصح بقبول العرض المقدم لكن محمد علي لم يأخذ بمشورة أركان دولته وشجعه على ذلك الممثلين الفرنسيين الموجودين في مصر وبذات الوقت رفض ضغط قناصل الدول الأوروبية لقبول المعاهدة قبل انتهاء الفترة الاولى المقررة ومخاطبتهم ((ان موقفهم منه أشبه بموقف لص دخل على رب عائلة في عقر داره وطلب منه ان يعطيه ماله ومتاعه فلما أبى رب العائلة هدهه اللص بقتل حرمه وأولاده قائلاً له ان تبعة القتل ستقع عليه⁽⁴⁹⁾)).

نظراً لرفض محمد علي المطالب أصدر السلطان العثماني أمراً بخلع محمد علي من الحكم في 15 تشرين اول عام 1840م وتعيين عزت باشا خلفاً له بحكم مصر وسوريا وبموافقة حلفائه الأوروبيين⁽⁵⁰⁾، انتهت مدة العشر أيام الأولى فخسر محمد علي حكم عكا، وبقي عدة أيام على المهلة

⁽⁴⁷⁾ خوري، عادل إسماعيل (1960م). ص: 242.

⁽⁴⁸⁾ خوري، عادل إسماعيل (1960م). ص: 257.

⁽⁴⁹⁾ رستم، أسد (1933م). الاصول العربية لتاريخ سوريا في عهد محمد علي باشا، مجلد: 5، الاوراق السياسية لسنة 1256هـ، لبنان: بيروت. منشورات كلية العلوم والآداب. ص: 172-180.

⁽⁵⁰⁾ بركات، داوود . د.ت . البطل الفاتح إبراهيم باشا وفتح الشام 1832م، مصر: القاهرة. المطبعة الرحمانية. ص: 202.

الثانية فطلب من أركان دولته للاجتماع مره ثانية فعرضوا عليه الموافقة فاستدعى المندوب العثماني والقناصل وأبلغهم الموافقة بقبول حكم مصر وراثياً ومحتفظاً بحقه بمطالبة السلطان بحكم سوريا مدى الحياة، الا ان المندوب العثماني والقناصل طلبوا من محمد علي سحب العسكر من سوريا وإعادة الاسطول العثماني الى السلطنة فوراً، الا ان محمد علي رفض ذلك وبانتظار رد السلطان عما طرحه، وقد وضحت انكلترا بأنه لا يحق للسلطان قبول المقترح او رفضه دون موافقة الدول الموقعة على المعاهدة وكانت النتيجة ان محمد علي قرر بتاريخ 6 أيلول عام 1840م عدم قبول المعاهدة دون قيد او شرط⁽⁵¹⁾، شعر محمد علي بموقف فرنسا المتراخي وبالأخص بعد ان طلب محمد علي بتاريخ 7 تشرين الثاني عام 1840م من ملك فرنسا لويس فيليب المساعدة العسكرية فلم يتلقى الإجابة على طلبه فأدرك محمد علي أن فرنسا لا ترغب بتقديم المساعدة⁽⁵²⁾، رضخ محمد علي للأمر فلم يعد أمامه إلا القبول بعرض انكلترا الذي وضعته في 14 تشرين الثاني عام 1840م، والذي تضمن باستعداد الدول الاوروبية لمساعدة محمد علي اذا انسحب من سوريا وإعادة الاسطول العثماني الى الآستانة خلال ثلاثة أيام من تبليغه، فوافق محمد علي على العرض وأرسل بتاريخ 11 كانون الاول عام 1840م كتاباً للصدر الاعظم يبلغه بموافقة⁽⁵³⁾، إلا أن السلطان العثماني رفض إلغاء أمر عزل محمد علي وإرضاء الدول الاوروبية فأصدر أمراً بتاريخ 13 شباط 1841م، تضمن مجموعة من الشروط القاسية لإعادة محمد علي والياً على مصر ثم أصدر السلطان أمراً آخر بتاريخ 19 نيسان عام 1841م خفف من الشروط

(51) الدسوقي (1976م). ص: 187.

(52) خوري، عادل إسماعيل (1960م). ص: 269.

(53) خوري، عادل إسماعيل (1960م). ص: 270-271.

الواردة من الأمر الأول، وخلال تلك الأوقات كانت تجري اتصالات بين وزير خارجية محمد علي والقائد البريطاني نابير والاتفاق على انسحاب القوات من سوريا⁽⁵⁴⁾، فقام محمد علي بنشر منشور عام وجهه إلى الحكام والعلماء والذوات قال فيه ((أنه حضر الى ميناء الاسكندرية جناب الاميرال نابير وعرض لنا اتفاق دول أوروبا بإجابة طلبه مصر لنا بطريق التوارث وصدر الامر للسر عسكر وكافة القواد بترك الشام والاذن بحضورهم لمصر))⁽⁵⁵⁾.

سعت الدول الأوروبية الى تحديد الوضع الدستوري لمحمد علي وتوسطت لدى السلطان من اجل ذلك وعلى ان يدفع للسلطنة جزية سنوية مقدارها ثلاثون مليون قرش وألا يزيد عدد جيشه عن 18 ألف جندي، وللسلطان حق تعيين كبار موظفي دولته وان يعترف بالمعاهدات التي عقدها الباب العالي مع الدول الاجنبية تعتبر ملزمة لمصر أيضاً⁽⁵⁶⁾.

7) إثارة الأحقاد والضغائن بين شرائح المجتمع في بلاد الشام:

ساهمت الدول الأوروبية وبالأخص إنكلترا بالمساهمة في ديمومة وجود الحكم العثماني خارج العاصمة القسطنطينية، وكان ثمن هذا الاستمرار تدخل الدول الأوروبية بشؤون السلطنة العثمانية في ظل عوامل الضعف التي مرت وأهمها عدم القدرة على حكم الشعوب التي وقعت تحت هيمنتها واستخدمها لأسلوب إثارة الأحقاد والضغائن بين شرائح المجتمع وفي هذا الخصوص كان ادق وصف لأسباب دعم العثمانيين لذلك قول قنصل إنكلترا في دمشق ((والظلم يدفع الى المقاومة، والضعف يزيد

⁽⁵⁴⁾ بركات د.ت. ص: 203-204.

⁽⁵⁵⁾ بركات د.ت. ص: 202-203.

⁽⁵⁶⁾ الدسوقي (1976م). ص: 188-189.

التمرد، والسكان يؤلفون من طوائف مختلفة المذاهب معادية للسنة، ومن طوائف نصرانية متعصبة يعادي بعضها بعضاً، والحكومة عاجزة عن بسط سيطرتها على الجميع، ولهذا أمست مضطرة إلى إثارة طائفة على أخرى بإيقاد جذوة التحاسد والبغضاء، ويمثل هذه المسائل تتمكن من حفظ بعض السيطرة لنفسها⁽⁵⁷⁾)).

أصبح التدخل الاجنبي في الامبراطورية حقيقة لا بد منها فأصبح قنصل روسيا مسيطراً على مسائل الروم الارثوذكس وقنصل فرنسا الحاكم والمتحكم في قضايا البابويين وقنصل انكلترا مهيمناً فيما يعرض للبروتستانت⁽⁵⁸⁾، ومما يؤكد ذلك أنه في عام 1861م قام الامبراطور نابليون الثالث امبراطور فرنسا بإرسال حملته من قبله الى سوريا بحجة حماية المسيحيين ولم تحقق الحملة هدفها فعادت الى بيروت وكسروان وزحلة للمحافظة على قرى المسيحيين فقط.⁽⁵⁹⁾

8 موقف الامبراطورية العثمانية من بلاد الشام في أوائل القرن التاسع عشر:

استعرضنا وضع الامبراطورية العثمانية وعلاقتها مع الدول الاوروبية وأصبحت رهينة المعاهدات التي قيدتها وأصبحت ضعيفة الى حين يأتي الوقت المناسب للسيطرة وتقاسم ممتلكاتها سيما وانه لم تكن لدى الدولة العثمانية القدرة على مواجهة الاوضاع الجديدة اذ كان الفساد الحكم العثماني قد بلغ مداه فالرشوة وشراء المناصب والضرائب الفادحة وغير ذلك من أساليب الظلم الذي كان من الممكن عده من الامور المعتادة في العصور السابقة لم يعد ممكناً في وقت بدا فيه الناس يتسامعون بالحركات

⁽⁵⁷⁾ كرد علي ، محمد (1983م). ج:3، ص:81-82.

⁽⁵⁸⁾ كرد علي ، محمد (1983م). ص:93.

⁽⁵⁹⁾ العظمة (2002م). ص:322.

التحررية والتطورات الدستورية والثورات القومية التي كانت تجري في مختلف انحاء أوروبا في القرن التاسع عشر ومن الإنصاف ان نقول انه قد بذلت جهوداً داخل نطاق الدولة العثمانية لمواجهة التطورات الجديدة، كانت المحاولة الأولى في زمن السلطان عبد الحميد 1839 - 1881م عندما حاول تحقيق إصلاحات مدنية على أساس جديد وعرفت هذه المحاولة بالتنظيمات وقد صدرت في منشور همايوني، والمحاولة الثانية كانت زمن عبد الحميد الثاني 1876-1909م عندما حاول تخفيف الحكم المطلق وجعله مشروطاً بالدستور، وسميت هذه الإصلاحات بالمشروطية أي مشروطية الحكم⁽⁶⁰⁾. حاول السلطان عبد الحميد استقطاب نفوس العرب من خلال فكرة الجامعة الاسلامية والتي تهدف الى توطيد موقفه الداخلي ضد المعارضين لحكمه وتعزيز موقفه الخارجي وكسب ولاء المسلمين بصفته خليفة المسلمين، ومن خلال ذلك يستطيع ان يهدد نفوذ الدول الأجنبية ومستعمراتها، وقد شعر الأوروبيين بخطر هذه السياسة على نفوذهم⁽⁶¹⁾.

الشعور القومي العربي كان منتشراً لدى الشعوب العربية عامة وبلاد الشام بشكل خاص وقد بين ذلك أحد الكُتّاب الفرنسيين عندما زار الشام عام 1882م قائلاً: ((انتشرت روح الاستقلال انتشاراً واسعاً، وكان الشبان من المسلمين، خلال إقامتي في بيروت، منهمكين في تنظيم الجمعيات لإنشاء كثير من المدارس والمستشفيات والعمل على النهوض بالبلاد، ومن أهم هذا صفات هذا النشاط انه بريء من

⁽⁶⁰⁾ قدورة، زاهية (1985م). تاريخ العرب الحديث. ط:1، لبنان: بيروت. دار النهضة العربية. ص:233.

⁽⁶¹⁾ برو، توفيق (1991م). العرب والترك في العهد الدستوري العثماني 1908-1914م. ط:1، سوريا: دمشق. دار طلاس للنشر. ص: 47-48.

وصمة التعصب الطائفي، فقد عمدت تلك الجمعيات على قبول النصارى وإشراكهم في العمل القومي، أما الاتراك فقد نحوا من هذا الميدان⁽⁶²⁾.

بدأت روح الاستقلال في سوريا في صورة جمعيات كانت في البداية ثقافية ثم أصبحت جمعيات سياسية مثل رابطة الوطن العربي التي انشئت في باريس عام 1904م، جمعية النهضة العربية التي أسست في دمشق عام 1906م، جمعية الإخاء العربي العثماني التي أسست عام 1908م، المنتدى العربي الذي تأسس على أثر إقفال جمعية الإخاء العربي، ثم الجمعية القحطانية التي أنشئت عام 1909م، وجمعية العربية الفتاة التي أسسها العرب في باريس ثم انتقل مركزها الى بيروت عام 1913م، ثم إلى دمشق وبقيت فيها لعام 1920م، وتوجت اعمال هذه الجمعيات بالمؤتمر العربي الأول الذي عقد في باريس بين 18-23 حزيران عام 1913م⁽⁶³⁾، وقد واجه رجال الاتحاد والترقي هذا العمل السياسي بالعنف فكان إذ جاء الوالي العثماني جمال باشا⁽⁶⁴⁾ إلى دمشق والياً في عام 1913م، وظهرت أعماله المعادية للفكر العربي، وتوج سياسته بالقبض على عدد من الرجال العرب وتعليق عدد

⁽⁶²⁾ انطونيوس، جورج (1987م). تاريخ حركة القومية العربية. ط:1، ت: ناصر الدين الأسد، إحسان عباس. لبنان: بيروت، دار العلم للملايين . ص: 161-162.

⁽⁶³⁾ قدورة (1985). ص:235.

⁽⁶⁴⁾ جمال باشا 1872-1922م: ولد باسطنبول، تخرج من المدرسة الرشدية ومدرسة الأركان، كان احد ثلاثة من العصبة العسكرية حكموا تركيا خلال الحرب العالمية الأولى بعد عام 1908م، عندما عاد الى إسطنبول أصبح عضواً في الحكومة العسكرية. أرسل الى جبهة فلسطين عام 1914م حيث قاد محاولة فاشلة لغزو مصر، عُين بعد ذلك حاكماً على سوريا، بعد قيام نظام مصطفى كمال عكف على الاشراف على جيش الأفغان، وفي عام 1922م أغتاله أحد الوطنيين الأرمن أثناء تنقله في تقليس.

- الكيالي (1993م). ج:2، ص:74.

منهم على المشانق الذي زاد الحماس والكفاح للتخلص منه⁽⁶⁵⁾، وكانت حملة الإعدامات التي نفذها

الوالي جمال باشا على دفعتين الأولى في 21 آب 1915م، والثانية في 6 أيار عام 1916م.⁽⁶⁶⁾

كان حلم الاتحاد والترقي أن يتحقق في عدة سنوات ما لم تحققه الدولة السابقة من مزج للعناصر وصهرها في بوتقة واحدة خلال مئات السنين لكنهم اخطئوا في تقدير ما وصل اليه تطور الأوضاع في تلك السلطة المتزامية الأطراف⁽⁶⁷⁾.

9) الاطماع الفرنسية والبريطانية ببلاد الشام في الربع الاخير من القرن العشرين:

أرهقت الدولة العثمانية نتيجة الحروب التي خاضتها، فضعفت عسكرياً واقتصادياً فاستفادت الدول الاستعمارية من هذا الضعف وبالأخص فرنسا التي اتخذت عبر التاريخ حمايتها للأقليات المسيحية في بلاد الشام، وذلك كما جاء بتصريح رئيس الوزراء الفرنسي آنذاك بأن فرنسا: ((ستكون مضطرة وهي حامية المسيحيين في الشرق، لأن تجعل الحكومة العثمانية مسؤولة عن كل مكروه يلحق بهم، وهي تطلب منها بإلحاح أن تصدر الأوامر إلى الولاة ليحولوا دون حدوث مثل ذلك)).⁽⁶⁸⁾

وقد أكد رئيس الوزراء الفرنسي على العلاقة والوثيقة بين فرنسا وانكلترا من خلال خطابه الذي ألقاه في المجلس النيابي في 21 كانون اول عام 1912م، مؤكداً على حقوق فرنسا في الشرق واصفاً أن المساس بها مساساً ب الكرامة القومية: ((نحن مصممون على الدفاع عن حقوقنا ومصالحنا بلا هوادة،

⁽⁶⁵⁾ قدورة (1985). ص: 240.

⁽⁶⁶⁾ سعيد، أمين. د.ت، الثورة العربية الكبرى. ج: 1، مصر: القاهرة، مطبعة عيسى البابي الحلبي. ص: 58.

⁽⁶⁷⁾ برو (1991م). ص: 194.

⁽⁶⁸⁾ برو (1991م). ص: 350.

وعازمون على إدامة تقاليد فرنسا العظيمة في الشرق، وستسعى فرنسا لبذل كل ما في وسعها لصيانة هذه التقاليد المقدسة وحماية كرامتنا الوطنية))⁽⁶⁹⁾، وأعاد رئيس الوزراء الفرنسي ذلك أمام مجلس الشيوخ بقوله أن التفاهم الذي كان قد جرى بين فرنسا وإنكلترا على شؤون سوريا، التي كان موافقة على ماورد في خطاب رئيس الوزراء الفرنسي أمام مجلس العموم باعتراف حكومته بمصالح فرنسا في سوريا، إذ سبق ان اعطى رئيس الوزراء الفرنسي تصريحاً حول ذلك قائلاً: ((إن إنكلترا تتخلى عن أي مطمع سياسي لها في سوريا))⁽⁷⁰⁾، وبعد سنوات عدة وبالتحديد في 29 كانون الأول لعام 1918م أكد وزير خارجية فرنسا على منبر الجمعية العمومية الفرنسية بتمسك فرنسا بعلاقاتها التاريخية في سوريا بإعلانه: ((إن حقوق فرنسا في سوريا ولبنان وفلسطين، تقوم على التاريخ، وعلى اتفاقيات ومعاهدات- فضلاً عن أهل البلاد يريدوننا، وأن اتفاقيتنا مع بريطانيا، تربط بيننا وبينها، والحقوق المعترف لنا بها أصبحت ملكاً لنا بالفعل⁽⁷¹⁾)).

لا بد في نهاية الأمر أن ظهرت نوايا وأفعال الدول الاستعمارية بالتآمر على الدولة العثمانية وتقاسم تركتها، فما إن اندلعت الحرب العالمية الاولى فكرة التقسيم بدأت عندما اتفقت فرنسا وإنكلترا على عقد اتفاقية سرية مع روسيا في شهر اذار عام 1915م بتنفيذ المطلب الروسي بضم اسطنبول

⁽⁶⁹⁾ سلطان، علي (1987م). تاريخ سورية 1908-1918م نهاية الحكم التركي، ط:1، سوريا: دمشق. طلاس للدراسات والنشر. ص:244.

⁽⁷⁰⁾ قرقوط، ذوقان. (1989م). تطور الحركة الوطنية في سورية 1920-1939م، ط:1، سوريا: دمشق، طلاس للدراسات والنشر. ص: 17.

⁽⁷¹⁾ سلطان، علي (1987م). تاريخ سورية - حكم فيصل بن الحسين 1918-1920م، ط:1، سوريا: دمشق. طلاس للدراسات والنشر. ص:76.

والمضائق لروسيا في حال الانتصار بالحرب⁽⁷²⁾، وكان لبريطانيا الدور الخفي بوضع اتفاقية سايكس بيكو عام 1916م، ووعد بلفور عام 1917م مع انتهاء الحرب العالمية الأولى عُقدت الهدنة بين الأطراف المتحاربة في 11 تشرين الثاني عام 1918م، ومع بدأ الهدنة بين الأطراف المتحاربة أصبحت فرنسا تطالب بضم سوريا ولبنان وخليج الإسكندرون لسيطرتها.

الخاتمة:

في ختام هذا البحث تؤكد النتائج على أن الأهمية السياسية التاريخية لبلاد الشام ليست مجرد أهمية موقع جغرافي بل هي مركز ثقل بالنسبة للمسألة الشرقية ولحملة محمد علي باشا، حيث اعتبر هذين العاملين تهديداً مباشراً للاستقرار الأوروبي حيث تعاملت الدول الأوروبية من خلالها بأن تكون بلاد الشام ضعيفة ومقسمة وبالأخص اتجاه حملة محمد علي باشا على بلاد الشام ومنعها أن تكون تحت قيادة إقليمية قوية عسكرياً ودينياً، وقد أظهر الموقف الأوروبي العسكري والسياسي أمصير بلاد الشام لا يقرر إلا بموافقة الدول الاستعمارية الكبرى.

⁽⁷²⁾ قرقوط. (1989م). ص:24.

قائمة المصادر والمراجع:

أ- المصادر والمراجع العربية:

- 1- الحصري، ساطع. البلاد العربية والدولة العثمانية. ط:1، مصر: القاهرة، مطبعة الرسالة.
- 2- الخطيب، محمد كامل. (2003م). آخر أخبار المسألة الشرقية: ما يزال الرجل مريضاً. ط:1، سوريا: دمشق.
- 3- الدسوقي، محمد كمال (1976م). الدولة العثمانية والمسألة الشرقية. ط:1. مصر: القاهرة، دار الثقافة للطباعة والنشر.
- 4- العظمة، عبد العزيز (2002م). مرآة الشام تاريخ دمشق وأهلها. ط:2، سورية: دمشق، دار الفكر.
- 5- الغنام، سليمان (1980م). قراءة جديدة لسياسة محمد علي باشا التوسعية (1811-1840م) في الجزيرة العربية والسودان واليونان وسوريا. ط:1، السعودية: جدة، نشر تامة.
- 6- الكيالي، عبد الوهاب . (1993م). الموسوعة السياسية. ج:6، ط:3، لبنان: بيروت. المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- 7- انيس، محمد . (1993م). الدولة العثمانية والشرق العربي (1514-1914م). ط:1، مصر: القاهرة، مكتبة الانجلو المصرية.

8- بركات، داوود . د.ت . البطل الفاتح إبراهيم باشا وفتح الشام 1832م، مصر: القاهرة. المطبعة

الرحمانية.

9- برو، توفيق (1991م). العرب والترك في العهد الدستوري العثماني 1908-1914م. ط:1،

سوريا: دمشق. دار طلاس للنشر

10-خوري، اميل - عادل إسماعيل. (1960م). السياسة الدولية في الشرق العربي 1789-

1958م. ط:1، ج:2. لبنان: بيروت. دار النشر للسياسة والتاريخ.

11-رافق، عبد الكريم. (1974م). العرب والعثمانيون 1516-1916م. ط:1. سوريا: دمشق.

مطابع أ ب الاديب.

12-رستم، أسد (1933م). الاصول العربية لتاريخ سوريا في عهد محمد علي باشا، مجلد: 5 ،

الاوراق السياسية لسنة 1256هـ ، لبنان: بيروت. منشورات كلية العلوم والآداب.

13-سعيد، أمين. د.ت، الثورة العربية الكبرى. ج:1، مصر: القاهرة، مطبعة عيسى البابي الحلبي.

14-سلطان، علي (1987م). تاريخ سورية 1908-1918م نهاية الحكم التركي، ط:1، سوريا:

دمشق. طلاس للدراسات والنشر .

15-سلطان، علي (1987م). تاريخ سورية - حكم فيصل بن الحسين 1918-1920م، ط:1،

سورية: دمشق. طلاس للدراسات والنشر .

16-سمحات، قاسم. د.ت، محمد علي باشا والمشروع الفرنسي في بلاد الشام(1804-1850م)،

د.م.

17- عامر، محمود علي. (2004م). تاريخ الامبراطورية العثمانية، دراسة تاريخية واجتماعية.

ط:1. سوريا: دمشق.

18- قدورة، زاهية (1985م). تاريخ العرب الحديث. ط:1، لبنان: بيروت. دار النهضة العربية.

19- قرقوط، ذوقان. (1989م). تطور الحركة الوطنية في سورية 1920-1939م، ط:1، سوريا:

دمشق، طلاس للدراسات والنشر.

20- كامل باشا، مصطفى (1909م). المسألة الشرقية، ط:2، ج:1، مصر: القاهرة، مطبعة اللواء.

21- كرد علي، محمد (1925-1928م). خطط الشام، ج:5، سورية: دمشق، مطبعة المجمع العلمي

العربي.

22- كرد علي، محمد (1925-1928م). خطط الشام، ج:3، سورية: دمشق، مطبعة المجمع العلمي

العربي.

23- لبيب، حسين. (1921م)، المسألة الشرقية. مصر: القاهرة، مطبعة الهلال.

24- موستراس، المعجم الجغرافي العثماني. (د.م - د.ت).

25- موسوعة السياسة (1990م). ط:3، ج:1، لبنان: بيروت، دار نعمة للطباعة.

26- نور الدين، زين. (1976م). الصراع الدولي في الشرق الاوسط وولادة سورية ولبنان، لبنان:

بيروت. دار النهار.

27- وزارة المعارف السورية. تاريخ العرب الحديث من الفتح العثماني حتى بدأ اليقظة العربية، د.ت،

سوريا: دمشق، مطبعة الاستقلال.

ب - المصادر والمراجع الأجنبية المترجمة:

- 1- السلطان عبد الحميد .(1991م). مذكرات السلطان عبد الحميد، ط:3، ترجمة: محمد حرب. لبنان: بيروت، دار القلم.
- 2- انطونيوس، جورج (1987م). تاريخ حركة القومية العربية. ط:1، ت: ناصر الدين الأسد، إحسان عباس. لبنان: بيروت، دار العلم للملايين.
- 3- حتي، فيليب.(1959م). تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، ترجمة: كمال اليازجي. ط:1. لبنان: بيروت. دار الثقافة.
- 4- حوراني، البرت .(1997م). تاريخ الشعوب العربية. ترجمة: كمال خوري. ط:1، لبنان: بيروت. ص:353.